الخطاب الإجلالي وتركيبه في العربية والفرنسية

د/ السعيد حاوزة

جامعة تيزي وزو

ملخص: إن مفهوم الخطاب الإجلالي وخصائصه التركيبية عند عرب الجاهلية، لا يقصد في دلالته معنى الصلف والكبرياء، بل نشأ من طبيعة منشئهم اللساني الاجتماعي، تختلف بعض خصائصه التركيبية فيما بينها نسبيا، بحسب مقتضى الحال ومطلب المقام المجمع عليهما في حياتهم الاجتماعية، بينما إذا قوبل بمقابله في الفرنسية، وجدناه مناقضا جذريا، ذلك بمقتضى النزعة الطبقية المستعلية، نتيجة حياتهم الاجتماعية المشربة روح النزعة الإقطاعية. أما في القرآن العظيم فمفهومه يختلف فيما أُصِّلَ في روح البشر جِبِلَّةً، لانفراده في معناه الدلالي "الخصائص الإلهية".

Résumé : Le discours majestueux et sa composition syntaxique de l'arabe et de français en collationnement.

Le concept du discours majestueux et ses caractéristiques syntaxiques chez les arabes préislamiques, n'est point une intention dans son sens sémantique par orgueil, mais il est imposé par la nature de son substrat sociolinguistique et que certains de ses caractéristiques syntaxiques sont relativement différents, selon la communication et l'objet de la place du discours qu' on y tient, sur lequel sont en accord avec leur vie sociale, lorsqu' il correspond au français, on le trouve radicalement opposé par nécessité de tendance à la classe supérieure en conclusion de leur vie sociale penchant vers l'esprit de tendance féodale. Quant au Coran immense, son concept est différent originalement dans le cœur de l'homme de nature et n'a point d'égal de sens sémantique dans <<ses caractéristiques divines>>.

Summary. The majistic speech and its syntaxic composition in the Arabic and french language comparing

The concept of majestic speech and its syntaxic characteristics among the preislamic arabs is not an intention of pride, but derives from the nature of ther sociolinguistic Background. Sone of its syntaxic characteristics are relatively different according to communication and the object of the place of speech with which then are in harmony in then life. Social. Compared to the french language ; this kind of speech is the privilege of the aristocratic

class with its feudal spirit. In the holy Coran, its concept is thouroughly different since it is distinguished by its<<divine characteristics>>.

أطبق علماء العربية قديما والدارسون العرب والمستشرقون حديثا، على أن الفوارق الطبقية العمرانية (الاجتماعية) العربية الجاهلية، قد أثّرت أيما تأثير في لسان الجاهليين؛ وإن لم تكن هذه النظرية اللسانية التركيبية التخاطبية، مُستَحدثَةً مُسْتَنْبَطَةً مُبْتَدَعَةً في العصر الحديث. بل إنّك لتجدنَّ إشارة إليها في المصادر العربية القُدْمى، أشار بها علماء العربية؛ كأن تجد ذلك: في تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، والخصائص لابن جني، والصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها لابن فارس الرازي، وفقه اللغة وأسرار العربية لأبي منصور الثعالبي، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، والشرح على الكافية للرضي الإستراباذي، والبرهان في علوم القرآن للزركشي، والمزهر في علوم اللغة وأنواعها لجلال الدين السيوطي.

إلا أنّ هؤلاء الأعلام، لم يضعوا تلكم النظرية علما قائما بذاته، على منهجية الأبواب والفصول وأجزائها وأجزاء أجزائها بالمفهوم الأكاديمي الواسع العميق؛ كعلم النحو، وعلم البلاغة، وعلم المعاجم، وهلم جرا.

ذلكم إذن، لمّا يكتملْ في الحقيقة بالمفهوم الأكاديمي الصّرف، إلا في منتصف القرن التاسع عشر على أيدي اللسانيين الغربيين، الذين حققوا في ذلك نجاحا باهرا وفوزا عظيما، وفي اللسانيات الأميركية خاصة؛ ناهيك باللساني النطاسي المقدم: إدوارد ساپير E. Sapir في كتابه العتيد: اللسانيات linguistics[1] لما له من يد فضلى في الجهد العظيم الذي بذله في درسه العلمي الأكاديمي الدقيق، لسان هنود أميركا أو الجلود الحمر، بلهجاته المختلفة تشريحا للوحدات الإفرادية، تحليلا للخصائص التركيبية، تكييفا للقوانين الصوتية؛ فكان في ذلك رائدا مقدَّما لا يُشقُّ له غبار، يجري ولا يُجرى معه، بالمفهوم الاجتماعاني الدقيق le sociologisme

لأمر ما جعلهم يتفقون بالإجماع على إقحام هذه النظرية في باب يُسمى تواضعا واصطلاحا:علم الاجتماع اللغوي أو علم الاجتماع اللساني la sociolinguistique لما رأوا فيها من فائدة ضرورية، لا يُستَغنى عنها: "لأنّ إغفال العنصر الاجتماعي في اللغة، يحرم الدراسة من أقوى خصائص هذا الموضوع"[2].

أو تذهب مدرسة غربية أخرى، ألا وهي المدرسة السلوكية التي بدأت تنشط في العشرينات من القرن العشرين حتى أواخر الستينات، فتقحم المفهوم في نظرية تسمى اصطلاحا: علم النفس اللغوي أو علم النفس اللساني la psycholinguistique؛ وإن كانت هذه قد ظهرت بدايتها بعد الجهد العظيم الذي بذله أولئك الدارسون الأوروبيون المبرزون في علم اللسان البشري، منذ أواخر القرن الثامن عشر إلى أواخر القرن التاسع عشر، وهم يذهبون إلى أنها من فيض الإفراز النفسي أو النفساني، وهي من أشق المسائل المعقدة في علم النفس وأعسرها عامة، بَلْهَ ما يرتبط من صلة وثقى بالمادة الإفرادية من علم الألفاظ أو اللُّفاظية، وعلم الأوضاع، وعلم الدلالة، وعلم المعاني الكلية، وكذا المعاني في الألفاظ المطلقة والمقيّدة، بَلْهَ المادة التركيبية، كعلم التراكيب النحوية، والبلاغية، والسياقية، والنظمية، والأسلوبية: la stylistique خاصة.

بل إنّ من أطال النظر في المصادر العربية القُدمى وتحقّق، وتمحّص في مظانها وتدقّق، ونقّر في مطاويها وتطرّق، ألفى الصفوة من علماء العربية وأئمتهم، من تفطن إلى دقائقها وأشار إلى أسرارها، مع عزة الموضوع ودقته، أنهم ذهبوا بأفضلية السّبق اصطلاحا، وتنبهوا إليها تواضعا، كما سأنوه بهم ذكرا وأحبر بهم قولا في هذه الحصيلة من المقالة المقتضبة، مستشهدا على مسائلها بشواهد من

القرآن العظيم، وبمأثور من كلام أهل الجاهلية المراقع المفالق، فيما تفننوا من القريض بقرائحهم، ومن المنظوم بسلائقهم.

وإذا صرفتَ النّظر تلقاءَ ابن فارس الرّازي، ناظرا في مصنّفه الصاحبي في فقه اللغة، وجدتَ إشارة إلى ما يقارب ذلكم الاصطلاح في عبارته المتواترة في مظان تأليفه، ومطاوي مصنفه، جملة مركبة تركيبا إضافيا، ناهيك بها من جملة: "ومن سُنن العرب في كلامها"[3] كذا وكذا.

الخطاب اللغوي تواضعا واصطلاحا:

أود أن أعرّف الألفاظ الواردة في هذا الموضوع المختصر، أو في هذا المقال المقتضب، تواضعا واصطلاحا، من قبل أن أتدلف إلى مسائله تحليلا وتعليلا، إجمالا وتفصيلا، على هذا النحو من تخريج المادة الإفرادية الواردة في مظان تصانيف علماء العربية، وما يضارعها في اللسان الأعجمي مقابلة، ويضاهيها مماثلة، ويناظرها مشاكلة، في بعض تآليف المستشرقين خاصة، ومبلغهم من العلم بالمفهوم الأكاديمي الدقيق، سواءٌ أتلقَّفْتُه من بعض معاجمهم، أم من بعض ترجماتهم لمعاني القرآن ونقلهم إياها.

وقبل الشروع في بيان المقصد، يجمل بي أن أفضي إلى تخريج مادة "خطب" ومادة "جلّ" الثلاثيتين، على هذا النحو من البيان:

إنّ لفظ "خطاب"، اشتقاقه من خطب الثلاثي المجرد، وهو من "باب قتل"[4]، وتبني العرب منه بناء "فِعَال" و"مُفَاعَلَة" نحو: "الخِطاب والمُخَاطبة: مراجعة الكلام... المُخاطَبَة: مُفَاعَلَة من الخِطاب"[5]، زاد لويس معلوف، وهو من الرواد الكبار في صناعة المعاجم العربية على الطريقة الحديثة، معنى دلاليا، نقضا: "الخطاب: ما يُكَلِّمُ به الرّجل، ونقيضه: الجواب"[6].

ويتواتر بناء فِعَال في القرآن العظيم ثلاث مرات، قال تعالى مخبرا عن داود النبي عليه السلام {**وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ**} سورة ص/ الآية: 20، وقوله جل ذكره في سياق الخبر نفسه {**فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ**} سورة ص/ الآية: 23، وقوله جلّ وعزّ {**لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا**} سورة النبأ/ الآية: 37.

وقد كثرت أقوال المفسرين تفسيرا وتدبرا وتأويلا، ويُسْتَحْسَنُ بي المقام –إنْ أسعفني ذلك– أن أحتج على المسألة بما يناسب السياق، تقريبا إلى المعنى الدلالي الدقيق المراد من الكلمة.

فبالنسبة للآية الأولى، يقول الزمخشري: "معنى فصل الخطاب، البين من الكلام الملخص، الذي يتبينه من يخاطب به، ولا يلتبس عليه، ومن فصل الخطاب وملخصه، أن لا يخطئ صاحبه مظان الفصل والوصل... وأردت بفصل الخطاب الفاصل من الخطاب الذي يفصل بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والصواب والخطأ"[7].

وفي تخريج مقصد اللفظ من حيث المعنى الدلالي، يتخرج على معنى الحجاج والجدال، كما في حد قوله {**وَعَزَّنِي**} وغلبني... يريد جاء بحجاج لم أقدر أن أورد عليه ما أرده به... و أراد بالخطاب مخاطبة المُحاج المجادل، أو أراد خطبتُ المرأة، وخطبها هو، فخاطبني خطابا، أي: غالبني في الخُطْبة، فغلبني حيث زوجها دوني"[8]. وقوله جلت قدرته {**لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا**} أي "ليس في أيديهم مما يخاطب به الله ويأمر به، في أمر الثواب والعقاب، خطاب واحد يتصرفون فيه تصرّف المُلاّك، فيزيدون فيه أو ينقصون منه"[9]. يُسْتَشَفُّ من تفسير الزّمخشري تأويلا وتدبّرا، أنّ الخطاب البشري يحتمل الصدق والكذب لذاته، تبعا للنوازع النفسية البشرية في عملية الخطاب والتخاطب في الحياة الدنيا، دون الحياة اللدنية الأخروية، إذ اللفظ ههنا مقيد من حيث معناه الدلالي، يدخل في باب اصطلح عليه

أبو البقاء الكفوي في كلياته: بالخصائص الإلهية: "وقد تقرر أنّ الخصائص الإلهية لا تدخل في أوضاع العربية، بل هي مبنية على خصائص الخلق، ولهذا أورد القرآن على العادة فيما بينهم، لأنه خطاب لهم"[10]، ولا يكون الخطاب والتخاطب يوم القيامة إلا صدقا.

ومن مآخذ عبد القاهر الجرجاني على من ذم الشعر، لما رأوا فيه من الغيِّ، كأن يردّ عليهم بأسلوب الاستلطاف: "ان كان فيه الحق والصدق والحكمة وفصل الخطاب"[11] حيث ألحقه بالخصال الحميدة المستحسنة الثلاث.

وأود أن أخلص بعد هذا التخريج اللغوي الإفرادي لعلماء العربية وكذا تفسير الزمخشري، إلى ذكر صفوة الكلم تلخيصا: "قال بعض المفسرين: في قوله تعالى{ **وَفَصْلَ الْخِطَابِ}**، قال: هو أن يحكم بالبينة أو اليمين، وقيل معناه: أن يفصل بين الحق والباطل، ويميز بين الحكم وضدّه، وقيل فصل الخطاب... الفقه في القضاء"[12].

ثمّ إنّي بعد ذلك دلّفت إلى بناء "جَلَّ" المشدّد المضعّف وسماه علماء التصريف: الأصم، لشدّته في سائر لغات العرب، والفك لغة تميم، مشتقا منه بناء فعيل وفَعَال، اللذين هما من أسماء الله الحسنى وصفاته: "الجليل من صفات الله تقدّس وتعالى... الجليل الموصوف بنعوت الجلال... هو الجليل المطلق."[13]. وينقل ابن منظور قول بعض علماء العربية السالفين الدال على معنى التقليل بقَدْ المُؤَكّدة قبل المضارع: "وقد يُوصف به الأمر العظيم والرجل ذو القدر الخطير."[14]، كما يتعدى بالهمزة والتضعيف: "أجلَّه: عظّمَهُ، يُقال: جلَّ فلان في عيني، أي: عَظُمَ."[15]. وتتواضع العرب عليه لتجعله حرفا من الأضداد على بناء فَعَل: "الجَلَل: الشيءُ العظيم والصغير الهين، وهو من الأضداد في كلام العرب."[16]، كأنْ تُخَصِّصَه ببناء فَعِيل،

لأمر ذي شأن: "وأمّا الجليل فلا يكون إلا للعظيم."[17]. ويأتي على بناء إفْعَال: "الإجلال: موضع الإعطاء، وأصله من الشيء الجليل."[18].

ويقابله على طرفي نقيض لفظ: "إِذْلال"، وقد جمع المتنبي بينهما في قوله يصف وعول الجبال:

أَرِينُهُنَّ أَشْنَــعَ الأَمْــثَــالِ، كــأَنَّــما خُــلِقْــنَ، لــلإِذْلالِ
لَهَا لَحًى سُــودٌ، بِــلا سِبَالِ تَصْلُحُ للإِضْحَاكِ، لا الإِجْلالِ[19]

وتلحقه ياء النسب قياسا. ذلك مجمل تخريج اللفظين في العربية أثلا.

الخطاب الإجلالي وتركيبه في الفرنسية:

إلا أنّي لستُ بغافلٍ عن ذكر ما يقابل ذلك في الفرنسية ترجمة ونقلا؛ كأنْ يقابل المستشرق بيلو Belot لفظ "خطاب" ترجمة بهذه المترادفات الثلاثة: harangue، discours، allocution[20]، و"فصل الخطاب" بهذه العبارة: jugement avec preuves et serment[21].

أو يذهب المستشرق كازيميرسكي Kasimirski في قوله تعالى {**وَفَصْلَ الْخِطَابِ**} ترجمة، إلى مقابلين اثنين: sagesse et éloquence[22] أي: على معنى الحكمة والفصاحة.

وددتُ قبل أن أفضي إلى ذكر ذلك الخطاب، إجمالا وتفصيلا، أن أقابله بصنوه في بعض الألسنة الأعجمية، آخذا جنسا من خصائصه النحوية، كالضمائر، فنحس منها روح الاستعلاء والاستنكاف والصلف، وكذا روح الفوارق الطبقية، كما في مخاطبة المفرد بضمير الجمع، أو أن يُركَّبَ الكلامُ تركيبا خطابيا، كأسلوب الإخبار عن الغائب، وهلم جرا.

وقد أثرت الخصائص التركيبية لتلك الأمة في جانب من جوانب قواعد نحوها، يوم كانت الإقطاعية المستعلية في القرون الوسطى، أو في الحياة الاجتماعية

الأوروبية القَرْوَسَطيّة، مسيطرة على الطبقة الكادحة المستضعفة la classe ouvrière faible كأنْ آخذ اللسان الفرنسي نموذجا أو مثالا في خطابهم الملوك والأمراء والنبلاء، وغيرَهم من ذوي السلطان والنفوذ، دون السوقة والدهماء، مقابلا إياه بتعبير l'expression majestueuse "التعبير الإجلالي" أُخذ من majestas اللاتيني[23]، كأن يقولوا: "sa majesté le roi" جلالة الملك، أو " sa majesté l'empereur"ملك، أو ""خذ من مثالا في خطابهم الملوك والأمراء والنبلاء، وغيرَهم من ذوي السلطان والنفوذ، دون السوقة والدهماء، مقابلا" جلالة الإمبراطور، حيث يتخاطبون بينهم بهذا التعبير، مستعملين ضمير الجمع "nous" المقتبس من "nos" اللاتيني[24] المسمى في الاصطلاح النحوي الفرنسي: pronom personnel de la première personne du pluriel des deux genres[25]ما مقابله في العربية "نحن" عوض "أنا" " moi"؛ ويُلحق بالباب: deuxième personne du pluriel "vous" من vos اللاتيني[26]"أنتم" لجمع الذكور و"أنتن" لجمع الإناث، فكانوا يخاطبونهم بهذا التعبير للتعظيم والتعزير والتوقير، مصطلحين عليه بلفظ: vouvoyer[27] وإفراده خطابا لعامة الناس tutoyer[28] دون الخاصة.

كذلك يُلحق بهذه الخاصية التركيبية النحوية، جنس من الخطاب فرضته الإقطاعية الغربية في القرون الوسطى le féodalisme occidental au MoyenAge أو الإقطاع la féodalité يعتبرونها من الحقائق المسلمة، قلما يجرؤ المرء على اختراقها، ألا وهو الجانب التركيبي في التكييف الصوتي لجنس من الجمل، أو لجملة من الألفاظ ذات الأحرف المدّ القصيرة والطويلة، مقابلها في الفرنسية voyelles brèves et longues[29] وهي في العربية قريبة من قول ابن جني: "اعلم أنّ الحركات أبعاض حروف المد واللين، وهي: الألف والياء والواو...

وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة، والكسرة الياء الصغيرة، والضمة الواو الصغيرة؛ وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة."[30].

فالخاصة من طبقة الملوك والأمراء والنبلاء وحملة الأوسمة من الفرسان وغيرهم les rois, les princes, les comtes, et les chevaliers هم وحدهم ينفردون بالرخصة في مخالفة التكييف الصوتي للحركات، كأنْ نأخذ بتركيب: j'étais "كُنْتُ"في الفرنسية الحديثة المُقَوَّمة إصلاحا بعد الثورة الفرنسية، ذلك ممثل في استبدالهم مصوت o–voyelle– بـِ –a– ابتغاء مخالفتهم الطبقة الشعبية من حيث التكييف الصوتي، لما أُشرِبوا في قلوبهم النزعة الرجعية الإقطاعية الانفعالية فيلفظونه j'étois. وعلى هذا التركيب الدال على "لقب الشرف" titre de noblesse[31] نضرب بعض الأمثلة للكاتب الفرنسي الكبير شاطوبريانChateaubriand 1768– 1848 [32] المشربة روح الطبقة الإقطاعية، نحو: j'étois là sur les frontières de l'antiquité grecque"[33]كنتُ ها هنا على حدود العصر الإغريقي العتيق"، وقوله: je n' ai pu reconnoître[34] "لم أستطع أن أتعرّف". وكذا قوله: Joseph qui disoit[35] "يوسف القائل" وهلم جرا. عوض: j' étais, reconnaître, disait.

أو بتوسّع في البيان أكثر، نجد الطبقة الشعبية الفرنسية في: "القرن السابع عشر، كثيرا ما تلفظُ، فعل: je parlais "تكلّمتُ"، je croyais "اعتقَدْتُ"، je pensais "تفكّرتُ" وهلم جرا؛ أو أسماء بعض الأجناس نسبة إلى أمته أو وطنه، نحو: Ecossais"[36]اسكتْلَنْدِي... بإثبات حرفي العلّة الممثلين في ai اللاحقين بآخر اللفظ.

مع ذلكم الاستعمال العام في تكييفه الصوتي، منطقا ولفظا، بحرفي العلة ai: "بالنسبة لتلك الأفعال ولذلك الاسم وما يضارعها، إلا أنّها بقيت تُكْتَبُ أو تُخَطُّ برسمها الإملائي على صورة حرفي العلة oi، حيث بقي الأداء القديم في الاستعمال

خطًّا ولفظًا على منبر الوعظ والمحاماة je parlois, je croyois, je pensois, Ecossois"[37].

أمّا الطّبقة الشعبية فلا يحق لها ذلك ولا يترخص، فكلّ من يَلْفِظُ من الطّبقة الإقطاعية بلفظ السوقة والدهماء، رُمِي بالرّجعية مُنعتِينَه بالرّجعيِّ réactionnaire؛ حتى جاءت الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر 1789- 1799، قضت على تلك الفروق في التخاطب، جاعلة اللسان الفرنسي وثقافته واحدا دون الاثنين.

مع طَلِبَة فولتير Voltaire في استعمال كتابة اللفظ بما يُوافِق ذلكم التكييف الصوتي، من حيث النطق به باللاحقة المذكورة في ai صورةً وضبطا، باعتبار تلك الخاصية التركيبية دعوة لإصلاح جزء من اللسان الفرنسي réforme، إلا أنه لم يُتَقَبَّل من لدن الأكاديمية الفرنسية إلا في سنة 1835، أي بعد وفاة فولتير سنة 1778 في استعمال صورة كتابته المعروفة في يومنا هذا[38].

كما وددتُ أنْ أعقب لهذا الجانب التاريخي من التركيب النحوي الفرنسي: "أن قرنا قبل فولتير، أي: في سنة 1675، هنالك محامي مجلس الأمة بِرُوَان à Rouen المسمى نيكولا بيران Nikolas Bérain قد طلب هذا الإصلاح."[39]

الخطاب بضمير المفرد والمثنى والجمع:

سبق بعد الذكر، أن قلتُ: إنّ الفوارق الطبقية الاجتماعية الجاهلية، قد أثرت أيما تأثير في كلام الجاهليين.

ولأستبين سبيل ذلك، توجب المجال عليّ أن أضرب أمثلة فيما يخص بجانب من جوانب نظام الأسرة في الجاهلية، إلى مبادئ المساواة ودرجة تأثيرها في مختلف خصائص لسانها، على نحو ما تبين لي ذلك في جانب من جوانب قواعدهم العربية خاصة، نجد العرب في الجاهلية، ناهيك عنه من عصرٍ!لا يخفى أمره على

الناس، الجاهلية، ما الجاهلية؟!قال علي عبد الواحد وافي: "وقد كان العرب في جاهليتهم من أكثر الشعوب ميلا إلى المساواة بين الأفراد، ولذلك ساد في خطابهم ضمير المفرد، ولم تبد في لغتهم مظاهر المبالغة في التبجيل."[40].

إنّ مسألة الضمائر ليست خاصة بالعربية، بل هي قضية عامة الوجود، فوضعها مشترك في سائر الألسنة البشرية: "ومن السمات المتشابهة بين اللغات، وجود الضمائر فيها، ومن المعروف، أنّ الضمير بالتعريف هو ما دل على الظاهر اختصارا؛ أو أنه كلمة تنوب عن كلمة أخرى، فهو لا ينوب عن الكائن، بل يقوم مقام الكلمة الدالة على ذلك الكائن... وهذا ما دعا فقهاء اللغة إلى أن يفترضوا بأن نشوءَها، ربما كان راجعا في الأصل إلى الرغبة في الاختصار."[41]. لأمر ما رأى علماء اللسان الأوضاع النحوية قدرا مشتركا في البشر، أي: "وجود الضمائر في مختلف اللغات دليل آخر على وجود المفاهيم اللسانية المشتركة."[42].

وإذا الدّارس دقق النظر في كلام أهل الجاهلية منظومهم ومنثورهم، وجد من الشواهد على تلك المسائل اللسانية تركيبا وسياقا، نصيبا موفورا ومقدارا مستفيضا. وقد كان السوقة والدهماء وبالاصطلاح الحديث الطبقة الشعبية، تخاطب ملوكها وتبابعتَها وأقْيَالَها الجبابرة بضميرين اثنين اللَّذين هما بين التعظيم والإهانة، حسب المقام ومقتضى الحال، فإذا كان المقام يقتضي التعظيم والتعزير والتبجيل، فإنه يُفْهَمُ من المخاطِب معنى الرضا من الملك ومعنى العدل والإنصاف والرحمة في الحكم؛ قال ابن جنّي: "وعلة جواز ذلك عندي، أنه إنّما لم تُخاطَب الملوك بأسمائها إعظامًا لها، إذا كان الاسم دليل المعنى، وجاريا في أكثر الاستعمال مجراه، حتى دعا ذاك قوما إلى أن زعموا أن الاسم هو المسمى، فلما أرادوا إعظام الملوك وإكبارَهم، تجافوا وتجانفوا عن ابتذال أسمائهم التي هي شواهدهم وأدلة عليهم إلى الكناية بلفظ الغيبة، فقالوا: إنْ رأى الملك أدام الله عُلوَّه..."[43].

وإذا كان المقام يقتضي الإهانة والإذلال والصغار، فإنه يفهم من سياق الدلالة معنى الظلم والجور والطغوى والجبروت: "وذلك أنّ أصغر الناس قدرا، قد يخاطب أكبر الملوك محلا بالكاف من غير احتشام منه، ولا إنكار عليه، وذلك نحو قول التابع الصغير للسيد الخطير، قد خاطبتُ ذلك الرجل إلخ..."[44].

ونجد في السياق نفسه تغيير الخطاب عند الخاصة، منتهجا منهجا معينا حسب مقتضى الحال ودواعي المقام، كأن ينتقل المخاطِب –بكسر الطاء– من ضمير المفرد المتكلّم إلى ضمير الجمع، جامعا بين الإذلال تدنِّيا، ومشارب التودّد اقترابا، وتباريح الهوى صبابةً: "إنّ الملِك إذا خلا إلى خاصته، قال: "أنا"، وإذا خاطب الشعب في مرسوم، تغيرت لغته بتغير الشخصية التي يؤديها، فقال: "نحن"؛ ولكنه إذا خلا إلى محظيته في حريمه، فربما وصل التدهور في شخصيته إلى أن يقول: "عبدك وأسير هواك". فهذه أدوار يؤديها جلالته، يعلو فيها ويسفل حتى يصل في آخرها إلى أن يستغني عن الضمائر التي تدل على شخصيته، بإضافة أحط صفاته، إلى ضمير يدل عليه هي"[45].

ويتصدر موضوع الخطاب في علم البلاغة أو في علم التبليغ الفعال مكانا واسعا، وميدانا فسيحًا وطريقا مهيَعًا بأغراضه المختلفة وفنونه الكثيرة وخصائصه الجمّة، كغرض إلقاء المتكلم الخبرَ للمخاطَب –بفتح الطاء– من باب علم المعاني، وكغرض إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر؛ ومن باب "علم البيان كغرض الالتفات"[46] بأركانه الثلاثة.

وعلى هذا الأساس من منهج الخطاب وصلته بالتركيب العربي بلاغة وبيانا ونحوا، تعلل ابن قتيبة بجملة من خصائص أغراضه، قائلا: "وللعرب المجازات في الكلام، ومعناها: طرق القول ومآخذه، ففيها: الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف... ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين..."[47].

والأجدر أن أعقب لهذا البيان أكثر، هو أنني لم أنفِ جازما، إجراء الخطاب عند العرب مجرى الجمع، لا يُراد به إلا ذلكم الوجه فحسب، بل إنها كانت تخاطب كذلك؛ جريا على سنن الوضع في كلامها، وسليقة في لسانها، وفطرة في لغتها. وقد أفرد الثعالبي كلاما في المسألة سماه: "فصل في إقامة الواحد مقام الجمع."[48] نحو قوله: "من سنن العرب أن تقول: قَرَرْنا به عينا، أي: أعينا... ومن هذا الباب، سنة العرب أن يقولوا للرجل العظيم والملك الكبير: انظروا في أمري، ولأن السادة والملوك، يقولون: نحن فعلنا، وأنَّا أمرنا؛ فعلى قضية هذا الابتداء يخاطبون الجواب، كما قال تعالى عمن حضره الموت {**رَبِّ ارْجِعُونِ**} سورة المؤمنون الآية: 99..."[49].

أو إجراء الخطاب مجرى الجمع يُرَادُ به الواحد، جريًا على سنن في كلامهم، كما علل بقوله: "من سنن العرب الإتيان بذلك، كما قال تعالى {**مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ**} سورة التوبة/الآية: 17. وإنما أراد المسجد الحرام، وقال عز وجل {**وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا**} سورة البقرة/ الآية: 72، وكان القاتل واحدا."[50].

أو ينقل إجراء الخطاب الواحد بلفظ الاثنين: "تقول العرب: افعلا ذلك والمخاطَب واحد، كما قال تعالى {**أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ**} سورة ق/ الآية: 24. هو خطاب لمالك خازن
النار"[51].

وإذا انتهيت بعد هذا الاستشهاد بشواهد من القرآن المجيد في المضمار نفسه، انتقلتُ إلى شواهد أهل الجاهلية نظما ونثرا، ذلك في قول امرئ القيس:

قِفَا نَبْكِ مِن ذِكْرى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ بِسقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ[52]

قال القاضي الزوزني في شرح مستهل خطاب الشاعر: "قيل: خاطَبَ صاحِبَيه، وقيل بل خاطَبَ واحدًا، وأخرج الكلام مخرج الخطاب مع الاثنين، لأن العرب من عادتهم إجراء خطاب الاثنين على الواحد والجمع"[53].

إن هذه الخصائص التركيبية، لا يراد بها دلالة التوقير والتعزير والتبجيل، بل هي ناشئة من منشأ لسانهم سليقة وفطرة، إذ لا يُحسُّ منها روح الاستعلاء والاستنكاف والصَّلَف، وغيرها من النزعة الخُلُقية السيئة، الناشئة عن الفوارق الطبقية، أو الدهماء من الناس وعامتهم، بل هي دلالات على المعاني، يُخاطَبُ بها الكبير والصغير، والعظيم والحقير، والملك والسوقة، والغني والفقير، والشريف والوضيع، وما ضارع ذلك.

وإن من الاستشهادات على تلك المسائل في كلام أهل الجاهلية، منظومهم ومنثورهم لكثيرة، وإن منها في ديوان العرب لمستفيضة، تعبّر عن مقاصِد حِوَجِهم، تعبيرا بمقتضى حياتهم العمرانية، وهي كثيرة مستفيضة، بحسب المجالات المختلفة من المفاهيم، مما جعلني أكشف عن ثروة لسانية تساعدهم على الإبداع والاستنباط، سواء أكان ذلك في أسلوب المدح إيجابا، أم في أسلوب الذم سلبا؛ على هذا النحو:

الخطاب بضمير المفرد الغائب مدحا:

كقول زهير يمتدح هرم بن سنان:

هُوَ الجَوَادُ فَإِنْ يَلْحَقْ بِشأوِهِمَا على تَكَالِيفِهِ، فَمِثْلُهُ لَحِقَا[54]

استهلّ البيت بضمير المفرد الغائب "هو" ثمّ أكّد المقام بالبنية المضارعية التي في فعل "يلحق"، دون الجمع.

ويمدح في المضمار نفسه سيدا من سادة العرب، ألا وهو حصن بن حُذَيفة بن بَدْر من سادة غطفان:

تَراهُ إذا مَا جِئْتَهُ، مُتَهَلِّلاً كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الّذِي أَنْتَ سَائِلُهْ[55]

خاطبه مدحا بضمير "أنت" للمخاطَب المفرد المحذوف في أول البيت، لأن تقدير الكلم "أنت تراه"، ثمّ أثبت ذلك بعد صيغة المضارع بصيغة الماضي، مع تاء الفاعل، ابتغاء التناهي في الصيغة الإفرادية دلالة. هذا عند زهير المنعوت عند الأقدمين في زمرة عقلاء العرب المراجيح من ذوي الحجا، لجنوحه للسلم والسلام.

وإذا أفضيتُ إلى الحرث بن حلزة في الغرض نفسه، وجدته يذكر مآثر عمرو بن هند ملك الحيرة وجنوحه إلى الصلح بين المتقاتلين:

وهوَ الرَّبُّ، والشَّهِيدُ على يَوْ مِ الحِيَارَيْنِ، والبَلاءُ بلاءُ[56]

خاطَب الملك بضمير "هو" للمفرد المذكر الغائب.

وملاحظة أخرى، هي مخلقة ومجدرة أن أذكرها؛ بمقتضى تأويل بعض المفسرين وعلماء العربية، ذلك في إلحاقه "أل" بلفظ "ربّ" وإلحاقها في أوله هي خاصية مقيدة باسم من أسماء الله الحسنى: "الرَّبُّ: هو الله عز وجل... ولا يُقالُ الرب في غير الله إلا بالإضافة"[57]. ثم يُتبع صاحب اللسان تخريجه نقلا: "ويقال: الرب بالألف واللام لغير الله، وقد قالوه في الجاهلية للملك، قال الحرث بن حلزة: البيت..."[58] وعلى الإضافة: "رب كلّ شيء، مالكُه ومستحقه، وقيل: صاحبه."[59] وتضيفه العرب: "للعاقل ولغير العاقل"[60] وهو على التقييد بالإضافة، كقولهم: "رَبُّ الدّار، ورب الناقة، وقوله تعالى "{**ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ**} سورة يوسف، الآية: 50، {**إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ**} سورة يوسف، الآية: 23"[61] على معنى السيد.

ونجد في الموضوع ذاته، علقمة الفحل يمتدح الحرث بن جبلة الغساني:

وكُنْتُ امْرَأً، أَفْضَتْ إِلَيْكَ رَبَابَتِي، وَقَبْلَكَ رَبَّتْنِي، فَضَعْتُ رُبُوبُ[62]

كذلك خاطبه بتاء الضمير المتصلة بالماضي الدالة على صيغة الإفراد، بدلالة: "امرأً" ابتغاء توكيد المقام بصيغة الواحد.

أو أنتقل إلى شاعر مفلق، أوتي عَلَمًا مستطيلا في القريض، ألا وهو النابغة الذبياني يمدح النعمان بن المنذر بن ماء السماء:

فَإِنَّكَ شَمْسٌ والمُلُوكُ كواكِبُ، إذَا طَلَعَتْ لمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ[63]

إن المقام ههنا يستدعي دلالة اللفظ بصيغة الجمع، إلا أنه خَاطَبَ الملك بصيغة الواحد المتوضحة في "إن" المؤكّدة و"ك" للمخاطَب المفرد.

ثمّ دلَّفتُ إلى الأعشى الأكبر في المجال نفسه، وهو يمدح قيس بم معد يكرب سيد بني كندة:

هُوَ الوَاهِبُ المَائَةَ، المُصْطَفَا ةَ، كالنَّخلِ طَافَ بها المُجْتَرِمْ[64]

أخبر عنه بضمير "هو" للمفرد الغائب في أول البيت، ثمّ أكّد المقام ببنية "فَاعِل"، حيث يُستوحى من السياق دلالة التوكيد في العطاء الموهوب والسماحة في الكرم.

الخطاب بضمير المفرد قَدْحًا:

ولا يَسْتَبْعَدَن في مضمار الدرس ومجال البحث أن أشرتُ إلى المسألة في أول الكلام تلميحا، وذكرت تلويحا لفظ "إذلال" نقيض "إجلال"، ابتغاء تبيان مقصده من المعنى الدلالي المراد على طرفي نقيض، كما هو معهود إلى العرف المنطقي الفطري في طبيعة الأشياء بداهة؛ لآية ما وددتُ أن ألحق بالموضوع على وجه الاختصار، بعض خصائص أسلوب الخطاب إذلالا، كأن أخلص إلى جوهر الموضوع قولا:

ليس بمستنكر عن أرباب القريض من فحول الجاهلية المراقع، على أنهم كانوا يوجهون الخطاب بمقام الإذلال، تحوبا لأنفسهم صونا لروعهم، ألا يُحَطَّ من قدر إجلالهم، عزة ووقارا، إعظاما لذواتهم دون إنكارها، لما توارثوه من آبائهم الأولين، بحتمية حياتهم العمرانية الجاهلية ونسبيتها؛ كأني بهم يوجهونه بصيغة الأمر، فأسلوب النداء، فالاستفهام، فالنهي، فصيغة الإفراد دون الجمع، لملوك

العرب وسادتهم وكبرائهم وجبابرتهم، كما تبين ذلك في معلقة عمرو بن كلثوم، يوم افتخاره على الملك عمرو بن هند، تهديدا ووعيدا:

أبَا هِنْدٍ! فلا تَعْجَلْ عَلَيْنَا؛ وأَنْظِرْنَا، نُخَبِّرْكَ اليَقِينَا[65]

حذف ياء النداء، ويراد بها ههنا النداء البعيد، ثم أكّد المقام مخاطِبًا إياه بأسلوب النهي الممثل في حرف "لا"، ثم أتم مقام توكيد الخطاب ببنية "تعجل" المضارعية، وبعدها بفعل الأمر "أنظرنا" كي تتم عملية التخاطب المرادة للملك توجيها وإرسالا.

ويخبرنا عن التهديد نفسه:

تُهَدِّدُنَا وَتُوعِدُنَا، رُوَيْدًا مَتَى كُنَّا لأُمِّكَ، مَقْتَوِينَا[66]

أكّد المقام بصيغة الفعل المضارع والعطف عليه، ثم أكده ههنا بالبنية المصدرية "رويدا" للوعيد، أي: مهلا لِيُتِمَّ به ما يتوخاه من الخطاب الموجه للملك، طالبا منه الكف عن وعيده تهكما، حيث يستوحى من الدلالة، معنى الإنذار البليغ والرهبة.

خطاب الملوك بصيغة المفرد خاصة:

زد على ذلك، أن السوقة والدهماء في الجاهلية، كانوا يحيون ملوكهم بصيغة الواحد، دون أن يراعوا في كلامهم، سائر خطابهم الملوك، صيغة الجمع، ولا يتورعون في ذلك، نحو قولهم: "أَبَيْتَ اللَّعْنَ أيّها المَلِك" أو يحيون بقولهم: "عِمْتَ صَبَاحًا"، "كِلْتَا التّحيّتينِ كثيرة الورود في كلام الجاهليين، منظومهم و منثورهم بل إنهم يستهلون بهما مطالع قصائدهم.

أما المذكورة من التحية الأولى، فكانت للملوك خاصة، كما وردت في قول النابغة الذبياني، يعتذر إلى النعمان بن المنذر:

أَتَانِي أَبَيْتَ اللَّعْن، أَنَّكَ لُمْتَنِي وَتِلْكَ الَّتِي أَهْتَمُّ مِنْها، وَأَنْصَبُ[67]

ومن منثور كلامهم، قول بعض العرب يحيي الملك نفسه: "أبيت اللعن وأسعدَكَ إلهك"[68]، وورد في شرحه قولهم: "أبيت اللعن، كلمة كانت العرب تحيي بها ملوكها في الجاهلية... معناها: أبيت أيها الملك أن تأتي بما تُلْعَنُ عليه."[69].

خطاب الملوك والسوقة بضمير المفرد عامة:

وأما الأخرى فعامة عندهم، يُشْرِكون في خِطابها الملوك والسوقة على وتيرة واحدة؛ بل كانوا يخاطبون بها الأطلال البالية، والرسوم العافية، والديار الدارسة، يبتغون من وراء ذلك، ساكنيها وعُمَّارَها من قبل، ثم ظعنوا عنها وارتحلوا، فأصبح المكان بلقعا على: "مجاز المعاني"[70] كقول امرئ القيس:

أَلا عِمْ صَبَاحًا، أَيُّهَا الطَّلَلُ البَالي وهَلْ يَعِمَنْ، مَنْ كَانَ في العُصُرِ الخالي[71]

وفي شرح الأعلم الشنتمري برواية الأصمعي، يقول: "وهذا من عاداتهم، كأنهم يعنون بذلك أهل الطلل."[72]. ويتضح مقصد المعنى الدلالي في هذه التحية الجاهلية، في نقل ابن منظور بعض أقوال علماء العربية: "قولهم: عم صباحا: كلمة تحية، كأنه محذوف من نَعِمْ يَنْعِمُ بالكسر، كما تقول: كُلْ، أَكَلَ يأْكُلُ، فحُذِفَ منه الألف والنون استخفافا."[73].

أود أن أختم على هذا المقال، ذلك فيما أوردتُه من شواهد العربية، استشهادا على المسائل واحتجاجا. وأنت ترى في تضاعيفها أني ذكرتها عن قصد، دون أن أخرج عن محور الشواهد من الآيات الكريمة في كتاب الله وشواهد أهل الجاهلية، نظما ونثرا؛ ابتغاء تبيان المفهوم الدقيق للخطاب الإجلالي عند العرب من حيث أنواعه، وأجناسه، بمقتضى دواعي المقام وحتمية الموضوع.

خلاصة:

إن مفهوم الخطاب الإجلالي وخصائصه التركيبية عند عرب الجاهلية، لا يُقصد في دلالته معنى الصلف والكبرياء، بل نشأ من طبيعة منشئهم اللساني الاجتماعي، تختلف بعض خصائصه التركيبية فيما بينها نسبيا، بحسب مقتضى الحال ومطلب المقام المجمع عليهما في حياتهم الاجتماعية، بينما إذا قوبل بمقابله في الفرنسية، وجدناه مناقضا جذريا، ذلك بمقتضى النزعة الطبقية المستعلية، نتيجة حياتهم الاجتماعية المشربة روح النزعة الإقطاعية. أما في القرآن العظيم فمفهومه يختلف فيما أُصِّلَ في روع البشر جِبِلَّةً، لانفراده في معناه الدلالي "بالخصائص الإلهية".

هوامش:

[1] – راجع La Linguistique الترجمة الفرنسية.

[2] – اللغة بين المعيارية والوصفية، ص:14.

[3] – ورد في مواطن كثيرة من المصدر دون التقيد بموطن واحد.

[4] – المصباح المنير، ج–1، ص: 80/ خطب.

[5] – لسان العرب/ خطب.

[6] – المنجد، ص: 186/ خطب.

[7] – الكشاف، ج–3، ص: 365.

[8] – المصدر نفسه، ج–3، ص: 369.

[9] – المصدر نفسه، ج–4، ص: 210.

[10] – الكليات، ص: 794.

[11] – دلائل الإعجاز، ص: 30.

[12] – لسان العرب/ خطب.

[13] – المصدر نفسه/ جلل.

[14] – المصدر نفسه/ جلل.

[15] – المصدر نفسه/ جلل.

[16] – المصدر نفسه/ جلل.

[17] – المصدر نفسه/ جلل.

[18] – المصدر نفسه/ جلل.

[19] – التبيان في شرح الديوان، ج–3، ص: 317– 318.

[20] - Al Farâ'id arabe français, P. 168/خطب

[21] - Ibidem, P. 168/ خطب.

[22]- Coran, P. 352, sourate Ṣ.

[23] - Petit Larousse : P. 543.

[24]-Ibid : P. 623.

[25] -Ibid : P. 623/ nous, Grammaire française complète, P. 129.

[26] - Ibid : P. 129.

[27] - Petit Larousse, P. 984.

[28] - Ibid : P. 953.

[29] - Grammaire française complète : P. 18.

[30] – سر صناعة الإعراب، ص: 19.

[31] - Petit Larousse, P. 207.

[32] - Itinéraire de Paris à Jéruslem.

[33] - Ibid : P. 68.

[34] - Ibid : P. 78.

[35] - Ibid : P. 81.

[36] - Grammaire française complète : P. 65

[37] - Ibid : P. 65.

[38] - Ibid : P. 65.

[39] - Ibid : P. 65.

[40] – اللغة والمجتمع، ص: 13.

[41] – محاضرات في علم النفس اللغوي، ص: 41.

[42] – المصدر نفسه، ص: 42.

[43] – الخصائص، ج–2، ص: 188.

[44] – المصدر نفسه، ج–2، ص: 188.

[45] – اللغة بين المعيارية والوصفية، ص: 87.

[46] – الكشاف، ج–1، ص: 62.

[47] – تأويل مشكل القرآن، ص: 20.

[48] – فقه اللغة وأسرار العربية، ص: 214.

[49] – المصدر نفسه، ص: 214، المزهر، ج–1، ص: 333.

[50] – فقه اللغة وأسرار العربية، ص: 214، والمزهر، ج–1، ص: 334.

[51] – فقه اللغة وأسرار العربية، ص: 214، والمزهر، ج–1، ص: 335.

[52] – الزوزني: شرح المعلقات السبع، ص: 7، وديوان امرئ القيس، ص: 8، وجمهرة أشعار العرب، ص: 95.

[53] – شرح المعلقات السبع، ص: 7.

[54] – ديوان زهير، ص: 42.

[55] – المصدر نفسه، ص: 68.

[56] – الزوزني: شرح المعلقات السبع، ص: 169، ولسان العرب/ ربب.

[57] – لسان العرب/ ربب.

[58] – المصدر نفسه/ ربب.

[59] – المصدر نفسه/ ربب.

[60] – المصباح المنير، ج1–، ص: 98/ ربب.

[61] – الكشاف، ج–1، ص: 53.

[62] – لسان العرب/ ربب.

[63] – ديوان النابغة الذبياني، ص: 18.

[64] – ديوان الأعشى، ص: 199.

[65] – الزوزني: شرح المعلقات السبع، ص: 122، جمهر أشعار العرب، ص: 141.

[66] – الزوزني: شرح المعلقات السبع، ص: 128، وجمهرة أشعار العرب، ص: 143.

[67] – ديوان النابغة الذبياني، ص: 17.

[68] – الفاخر، ص: 68.

[69] – لسان العرب/ لعن، ديوان الحماسة، ج–1، ص: 67.

[70] – مقدمة جمهرة أشعار العرب، ص: 10.

[71] – ديوان امرئ القيس، ص: 27.

[72] – المصدر نفسه، ص: 27.

[73] – لسان العرب/ نعم.